بسم الله الرحمن الرحيم

الْقُوَّةُ وَالثَّبَاتُ فِي مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَاتِ ١٠ جُمَادَى الْأُولَى ١٤٤٥هـ

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ أَصَابَ الْأُمَّةَ فِي الزَّمَانِ الْغَابِرِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ يَوْمَ أَنْ دَخَلَ التَّتَارُ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي «الْكَامِلِ»: [ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ]: لَقَدْ بَقِيتُ عِدَّةَ سِنِينَ مُعْرِضًا عَنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ اسْتِعْظَامًا لَهَا، كَارِهًا لِذِكْرِهَا، فَأَنَا أُقَدِّمُ إِلَيْهِ رِجْلًا وَأُؤَخِّرُ أُخْرَى، فَمَنِ الَّذِي يَسْهُلُ عَلَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ نَعْيَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ؟ وَمَنِ الَّذِي يَهُونُ عَلَيْهِ ذِكْرُ ذَلِكَ؟ فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي، وَيَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ حُدُوثِهَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، إِلَّا أَنَّنِي حَثَّنِي جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ عَلَى تَسْطِيرِهَا وَأَنَا مُتَوَقِّفٌ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ تَرْكَ ذَلِكَ لَا يُجْدِي نَفْعًا، فَنَقُولُ: هَذَا الْفِعْلُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ الْحَادِثَةِ الْعُظْمَى، وَالْمُصِيبَةِ الْكُبْرَى الَّتِي عَقَّتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي عَنْ مِثْلِهَا، عَمَّتِ الْخَلَائِقَ، وَخَصَّتِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الْعَالَمَ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آدَمَ إِلَى الْآنِ لَمْ يُبْتَلُوا بِمِثْلِهَا، لَكَانَ صَادِقًا، فَإِنَّ التَّوَارِيخَ لَمْ تَتَضَمَّنْ مَا يُقَارِبُهَا وَلَا مَا يُدَانِيهَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَذْكُرُونَ مِنَ الْحَوَادِثِ مَا فَعَلَهُ بُخْتُنَصَّرَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْقَتْلِ، وَتَخْرِيبِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا خَرَّبَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِنُ مِنَ الْبِلَادِ، الَّتِي كُلُّ مَدِينَةٍ مِنْهَا أَضْعَافُ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ قَتَلُوا، فَإِنَّ أَهْلَ مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ مِمَّنْ قُتِلُوا أَكْثَرُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَعَلَّ الْخَلْقَ لَا يَرَوْنَ مِثْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ الْعَالَمُ، وَتَفْنَى الدُّنْيَا، إِلَّا يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

وَأَمَّا الدَّجَّالُ فَإِنَّهُ يُبْقِي عَلَى مَنِ اتَّبَعَهُ، وَيُهْلِكُ مَنْ خَالَفَهُ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يُبْقُوا عَلَى أَحَدٍ، بَلْ قَتَلُوا النِّسَاءَ وَالرِّجَالَ وَالْأَطْفَالَ، وَشَقُّوا بُطُونَ الْحَوَامِلِ، وَقَتَلُوا الْأَجِنَّةَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ الَّتِي اسْتَطَارَ شَرَرُهَا، وَعَمَّ ضَرَرُهَا، وَسَارَتْ فِي الْبِلَادِ كَالسَّحَابِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. اهـ

وَمَعَ ذَلِكَ وَبَعْدَهَا بِسَنَوَاتٍ مَعْدُودَةٍ هُزِمَ التَّتَارُ فِي مَعْرَكَةِ عَيْنِ جَالُوتَ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ الْمُظَفَّرِ سَيْفِ الدِّينِ قُطُزَ رَحِمَهُ اللهُ، وَكُسِرَتْ شَوْكَتُهُمْ، وَفُقِدَتْ هَيْبَتُهُمْ، وَضَعُفَتْ قُوَّتُهُمْ، وَكَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿أَوَلَمْ

يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شِفَاءِ الْعَلِيلِ»: وَأَيُّ حِكْمَةٍ فِي تَسْلِيطِ أَعْدَائِهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ؟ فَكَمْ لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنْ حِكَمٍ بَاهِرَةٍ، مِنْهَا: حُصُولُ مَحْبُوبِهِ مِنْ عُبُودِيَّةِ الصَّبْرِ وَالْجِهَادِ، وَتَحَمُّلُ الْأَذَى فِيهِ، وَالرِّضَى عَنْهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالثَّبَاتُ عَلَى عُبُودِيَّتِهِ وَطَاعَتِهِ مَعَ قُوَّةِ الْمُعَارِضِ وَغَلَبَتِهِ وَشَوْكَتِهِ، وَتَمْحِيصُ أَوْلِيَائِهِ مِنْ أَحْكَامِ الْبَشَرِيَّةِ وَدَوَاعِي الطِّبَاعِ بِبَذْلِ نُفُوسِهِمْ لَهُ وَأَذَى أَعْدَائِهِ لَهُمْ، وَتَمَيُّزُ الصَّادِقِ مِنَ الْكَاذِبِ، وَمَنْ يُرِيدُهُ وَيَعْبُدُهُ عَلَى جَمِيعِ الْحَالَاتِ مِمَّنْ يَعْبُدُهُ عَلَى حَرْفٍ، وَلِيَحْصُلَ لَهُ مَرْتَبَةُ الشَّهَادَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَلَا شَيْءَ أَبَرُّ عِنْدَ الْحَبِيبِ مِنْ بَذْلِ مُحِبِّهِ نَفْسَهُ فِي مَرْضَاتِهِ وَمُجَاهَدَةِ عَدُوِّهِ، فَكَمْ لِلَّهِ فِي هَذَا التَّسْلِيطِ مِنْ نِعْمَةٍ وَرَحْمَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَعْلَمَ ذَلِكَ فَتَأَمَّلِ الْآيَاتِ مِنْ أَوَاخِرِ «آلِ عِمْرَانَ» مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾. فَكَانَ هَذَا التَّمْيِيزُ مِنْ بَعْضِ حِكَمِ ذَلِكَ التَّسْلِيطِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ التَّسْلِيطُ لَمْ تَظْهَرْ فَضِيلَةُ الصَّبْرِ وَالْعَفْوِ وَالْحِكَمِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَلَا حَلَاوَةُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْقَهْرِ؛ فَإِنَّ الْأَشْيَاءَ يَظْهَرُ حُسْنُهَا بِأَضْدَادِهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ التَّسْلِيطُ لَمْ تَسْتَوْجِبِ الْأَعْدَاءُ الْمَحْقَ وَالْإِهَانَةَ وَالْكَبْتَ، فَاسْتَخْرَجَ ذَلِكَ التَّسْلِيطُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ مَا عِنْدَ أَوْلِيَائِهِ؛ فَاسْتَحَقُّوا كَرَامَتَهُمْ عَلَيْهِ، وَمَا عِنْدَ أَعْدَائِهِ؛ فَاسْتَحَقُّوا عُقُوبَتَهُمْ عَلَيْهِ، فَكَانَ هَذَا التَّسْلِيطُ مِمَّا أَظْهَرَ حِكْمَتَهُ وَعِزَّتَهُ وَرَحْمَتَهُ وَنِعْمَتَهُ فِي الْفَرِيقَيْنِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الثَّبَاتُ عَلَى الدِّينِ مَطْلَبُ كُلِّ مُسْلِمٍ صَادِقٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ عَابِدٍ مُوَفَّقٍ، وَدَيْدَنُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ، وَالْحَاجَةُ لَهُ مَاسَّةٌ فِي كُلِّ آنٍ وَحِينٍ، وَخَاصَّةً فِي زَمَانٍ كَثُرَ فِيهِ الْمُتَسَاقِطُونَ عَلَى الطَّرِيقِ. وَحَقِيقَةُ الثَّبَاتِ هُوَ الِاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقِ، قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي

كِتَابِهِ «تَيْسِيرِ اللَّطِيفِ الْمَنَّانِ»: الِاسْتِقَامَةُ: هِيَ لُزُومُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِأَنْ يَسْتَقِيمَ الْعَبْدُ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، وَتَرْكِ مَحَارِمِهِ، مُدَاوِمًا لِذَلِكَ، تَائِبًا مِمَّا أَخَلَّ بِهِ مِنْ حُقُوقِهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾، أَيْ: مِمَّا وَقَعَ مِنْكُمْ مِنَ الْخَلَلِ فِي الِاسْتِقَامَةِ. اهـ وَإِذَا كَانَ أَهْلُ الْكُفْرِ يَصْبِرُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَيَتَوَاصَوْنَ بِهِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، كَمَا قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾، فَأَوْلَى لِأَهْلِ الْحَقِّ أَنْ يَصْبِرُوا عَلَى الْحَقِّ وَيُصَابِرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الِاسْتِقَامَةِ»: «فَأَمَرَهُ بِالصَّبْرِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهِ. وَلَا تَقَعُ فِتْنَةٌ إِلَّا مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَ بِالْحَقِّ وَأَمَرَ بِالصَّبْرِ، فَالْفِتْنَةُ إِمَّا مِنْ تَرْكِ الْحَقِّ وَإِمَّا مِنْ تَرْكِ الصَّبْرِ. اهـ

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»: وَكَمَا أَنَّ اللهَ نَهَى نَبِيَّهُ أَنْ يُصِيبَهُ حَزَنٌ أَوْ ضِيقٌ مِمَّنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، فَكَذَلِكَ فِي آخِرِهِ. فَالْمُؤْمِنُ مَنْهِيٌّ أَنْ يَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِنْ مَكْرِهِمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا رَأَى الْمُنْكَرَ أَوْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْ أَحْوَالِ الْإِسْلَامِ جَزِعَ وَكَلَّ، وَنَاحَ كَمَا يَنُوحُ أَهْلُ الْمَصَائِبِ، وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ هَذَا؛ بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِالصَّبْرِ وَالتَّوَكُّلِ وَالثَّبَاتِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يُؤْمِنَ بِاللهِ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ، وَأَنَّ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقْوَى، وَأَنَّ مَا يُصِيبُهُ فَهُوَ بِذُنُوبِهِ فَلْيَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلْيَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِهِ، وَلْيُسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّهِ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ.

عِبَادَ اللهِ: اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أَنَّ الثَّبَاتَ بِيَدِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾. قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «رَوْضَةِ الْمُحِبِّينَ»: فَلَا يَرْكَنُ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ وَصَبْرِهِ وَحَالِهِ وَعِفَّتِهِ، وَمَتَى رَكَنَ إِلَى ذَلِكَ تَخَلَّتْ عَنْهُ عِصْمَةُ اللهِ، وَأَحَاطَ بِهِ

الْخُذْلَانُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى لِأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ: ﴿وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾؛ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ دُعَائِهِ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، وَكَانَتْ أَكْثَرُ يَمِينِهِ: لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، كَيْفَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: رَتَّبَ مَا يَحْصُلُ لَهُمْ عَلَى فِعْلِ مَا يُوعَظُونَ بِهِ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ أُمُورٌ:

أَحَدُهَا: الْخَيْرِيَّةُ. فِي قَوْلِهِ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أَيْ: لَكَانُوا مِنَ الْأَخْيَارِ الْمُتَّصِفِينَ بِأَوْصَافِهِمْ، مِنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ الَّتِي أُمِرُوا بِهَا، أَيْ: وَانْتَفَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ صِفَةُ الْأَشْرَارِ؛ لِأَنَّ ثُبُوتَ الشَّيْءِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ ضِدِّهِ.

الثَّانِي: حُصُولُ التَّثْبِيتِ وَالثَّبَاتِ وَزِيَادَتُهُ. فَإِنَّ اللهَ يُثَبِّتُ الَّذِينَ آمَنُوا بِسَبَبِ مَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، الَّذِي هُوَ الْقِيَامُ بِمَا وُعِظُوا بِهِ، فَيُثَبِّتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ وُرُودِ الْفِتَنِ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَالْمَصَائِبِ، فَيَحْصُلُ لَهُمْ ثَبَاتٌ يُوَفَّقُونَ لِفِعْلِ الْأَوَامِرِ، وَتَرْكِ الزَّوَاجِرِ الَّتِي تَقْتَضِي النَّفْسُ فِعْلَهَا، وَعِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ الَّتِي يَكْرَهُهَا الْعَبْدُ. فَيُوَفَّقُ لِلتَّثْبِيتِ بِالتَّوْفِيقِ لِلصَّبْرِ، أَوْ لِلرِّضَا، أَوْ لِلشُّكْرِ. فَيُنْزِلُ عَلَيْهِ مَعُونَةً مِنَ اللهِ لِلْقِيَامِ بِذَلِكَ، وَيَحْصُلُ لَهُ الثَّبَاتُ عَلَى الدِّينِ عِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْقَبْرِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعَبْدَ الْقَائِمَ بِمَا أُمِرَ بِهِ لَا يَزَالُ يَتَمَرَّنُ عَلَى الْأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ حَتَّى يَأْلَفَهَا، وَيَشْتَاقَ إِلَيْهَا وَإِلَى أَمْثَالِهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَعُونَةً لَهُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى الطَّاعَاتِ.

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ: ﴿وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيْ: فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ الَّذِي يَكُونُ لِلرُّوحِ وَالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ. مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

الرَّابِعُ: الْهِدَايَةُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَهَذَا عُمُومٌ بَعْدَ خُصُوصٍ؛ لِشَرَفِ الْهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، مِنْ كَوْنِهَا مُتَضَمِّنَةً لِلْعِلْمِ بِالْحَقِّ، وَمَحَبَّتِهِ وَإِيثَارِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَتَوَقُّفِ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ عَلَى ذَلِكَ، فَمَنْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَقَدْ وُفِّقَ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَانْدَفَعَ عَنْهُ كُلُّ شَرٍّ وَضَيْرٍ.